# حبسيات المعتمد بن عباد

## دراسة فنية

## Habsiyyat of Mu'tamad Ibn e Abbad: a Techinical Study

اخلاق احمد*


## *ABSTRACT*

This research paper encapsulates Moatamad bin Abbad's poetry composed during his stay behind the bars. Analytical study of the relevant literature on the subject shows that Moatamad bin Abbad was poet par excellence. Poetry was his prime passion. His poetry is incarnation of his acute observation of bitter realities of life like sorrow, suffering and ravages of time. This shapped his preference for elegy as mediem of poetic expression through which he expressed deep sorrow over his forced dethroning by Yousaf bin Ttashfeen.

He also tried his hands at other genres of poetry, but sorrow, suffering and unrest dominated all of them, vented his weakness and helplessness as a prisoner because he was not only feeling the physical pain of hand cuffs and bars in the jail, but was also subject to psychological trauma of abject poverty suffered by his daughters. Besides this he also gave comparison of two different phases of his life: life as a Royal Elite and his days in the jail.

It is beyond a ting of doubt that he religiously followed rhyme and rhythem in his poetry. His technical soundness and expertise in expressing deep – felt emotion have rendered his poetry eternal.


* محاضر بكلية اللغة العربية و آدابها، الجامعة الإسلامية العالمية، اسلام آباد، باكستان.

## مقدمة

هو المعتمد على الله، الظافر المؤيد، أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، أحد ملوك إشبيلية وقرطبة وجنوب غربي الأندلس، وأقوى سلاطين ملوك الطوائف[1]. ولد عام 437 هـ بمدينة باجة. وقد كان بنو عباد من أعظم الملوك رقعة، وأبعدهم صيتا، وأكثرهم ذكرا في تاريخ الأندلس، قامت دولتهم على يد القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل، ثم توسعت حتى شملت مرسية في الشرق، وانتهى عهدهم بتدخل يوسف بن تاشفين، و بذلك سُجن المعتمد بن عباد في أغمات سنة 484هـ، وظل في هذا السجن حتى وافته منيته سنة 488هـ[2].

نشأ المعتمد نشأة ملكية عربية خالصة، وعاش في جو من اللهو والترف، ولكنه – مع ذلك – رأى الاضطرابات السياسية والصراعات العسكرية عن كثب، فلم يتخط من عمره أربعة عشر عاما إلا وعلى كاهله أعباء ومسؤوليات جسام، فتولى ولاية مدينة شلب، ثم استولى على عرش إشبيلية بعد وفاة أبيه، ولم يلبث على عرش إشبيلة حتى زادت رقعة ملكه بالاستيلاء على قرطبه، واشتبك في حروب كثيرة مع الفونسو السادس، واستنجد بالمرابطين لدفع خطر الروم، ولكن سرعان ما تغير موقف المرابطيين منه لاندفاعه وراء اللهو والترف حتى جاء يوسف بن تاشفين واستولى على عرشه وأسره ونفاه إلى أغمات، ولم تستعص على المعتمد قريحته الشعرية هناك، ففاضت نظما مفعما بالحزن والكآبة.[3] ولا ريب في أنه كان شاعرا مطبوعا، مرهف الإحساس، شاحذ الأفكار، دقيق الملاحظة، متألقا في خياله، بارعا في تصويره، وله ديوان يسمى بديوان المعتمد بن عباد،[4] وقد قسم شعره فيه إلى قسمين رئيسين، أما القسم الأول منهما، فهو صورة لحياته اللاهية، وإيحاءات لتلك الظروف التي مر بها بكل ما فيها من ترف هائل ونعيم مُلْهٍ، وأما الموضوعات فتطرق فيها إلى أكثر الفنون الشعرية التقليدية من فخر وهجاء ورثاء وغزل، وقد أكثر أحيانا من وصف مظاهر الطبيعة للبيئة الأندلسية الساحرة، وقد كان شعره في هذه الفترة حافلاً بشعور الحياة النابض، موفور النشاط، ولكنه كان قليل العاطفة، متأرجحاً بين التشبيهات والاستعارات الرائعة وما يتصل بذلك من الروافد البلاغية والأفانين الشعرية وزنا وقافية وفنا ونظما، ولكن

هـذه كلها ليست إلا دوافع سطحية لا تمنح شعره قوة وروحا ولا تكسيه لباس الخلود والبقاء. [5]

أما القسم الثاني، فهو يشتمل على تلك القصائد التي نظمها خلال أسره بأغمات، وهي تحمل في طياتها القلق والاضطراب لذهاب عرشه ونفيه وأسرته عن وطنه، وتعبر عن الحزن العميق والتحسر الطويل لما لاقى من خشونة الدنيا وضيقها بعد أن كانت طيّعة في يده، وتترجم الضعف والعجز خاصة لما رأى بناته يغزلن لأجل قوت يومهن، وأصبحن جائعات وحافيات، لا يستر أجسادهن إلا الملابس الخلقة البالية، وكذلك تتضمن اليأس والسآمة، وذلك أن اليأس قد سيطر عليه فصار منغلقا على نفسه حتى بدأت الأماني تموت في نفسه متعاقبة، وطال به الشقاء، واستمر معه البكاء في شعر يمثل العاطفة الأليمة والحالة الكئيبة والخواطر الموجعة. [6]

وقد كان شعره في هذه الفترة هو الشيء الذي كساه لباس الخلود وضمن له البقاء الأبدي، وذلك لأنه يحمل إلينا تأثيرا لم يكن آنياً يزول مع الوقت وينتهي بالقراءة الأولى، بل نزداد ألماً ونتجدد حزناً كلما نقرؤه، فقد كان شعره في الأسر بكاءً على الماضي، وحنيناً لوطنه وشكوى الدهر وتقلباته، وأصداء بعيدة لتلك اللذات التي كان يتمتع بها طربا ولهواً، وآهات للحالة النفسية والظروف التعسة التي حلت به وجرحته وجرحت مشاعره، فجادت قريحته حيث طفحت به العاطفة وضعف خياله، وكثر ألمه وازداد حزنه في شعره في أسلوب يميل إلى سهولة ويتميز بطلاقة، ويمتاز برقة ومتانة. [7]

سأحاول في بحثي هذا أن ألقي الضوء على المنظور الحبسي لهذا الشاعر الجليل، حيث نرى أن هذا البحث يمكن أن يفتح آفاقا جديدة في شعر الرثاء الوطني والحنين إليه، ودراسة التأثيرات العاطفية التي طرأت عليه بعد أن قلبه الدهر من علو السماء إلى حضيض الأرض، وتصوير الحياة الأليمة والحالة السيئة بعد أن كانت لاهية وعابثة، ثم عرض الأغراض الشعرية التي تحولت عنده من فخر وغزل وهجاء إلى حنين لوطنه ورثاء لأولاده ووطنه، وشكوى الاستعطاف. كما سأسعى إلى استجلاء خصائص أسلوبه الفني ومميزاته في الحبس، وذلك لأنه لم يطرق هذا الموضوع – على حد علم الباحث- أحد في باب منفرد أو مبحث مستقل عن شعره في الفترة التي حبس فيها- ، وإنما تعرضوا لعموم شعره وخصائصه بصفة عامة، وفي النهاية سأقدم خلاصة البحث والنتائج التي توصلت إليها، كما سأقدم بعض المقترحات بشأن هذا الموضوع للذين يرغبون في تطويره أو الدراسة حول هذا الموضوع.

## خصائص شعره في الحبس

إن أكبر ما يمتاز به شعره في هذه الفترة الحبسية هو القلق والاضطراب اللذان قد جثما على مشاعره، وزاحماه فكرا وإحساسا وغلباه عاطفةً وروحاً، وذلك لأنه لم يكن يقبل هذا الانقلاب بيسر، ولم يكن يتهيأ للاستسلام والخضوع في البداية، بل كان يأبى الانهيار وينكر الانقياد ويرفض الذل والهوان، فالأبيات التالية خير ما يعكس لنا حالته النفسية وما يعتريه من قلق واضطراب، كما يقول د. صلاح خالص: "فرغم أن الملك المقهور يرى أملاكه تنتزع منه وعرشه يتناثر قطعا بين يديه، فإنه لم يفقد اعتداده بنفسه وثقته بها، فهو يرفض أن يخضع للواقع المؤلم المرير. إنه يرفض أن يعترف أن مجده الباذخ قد انتهى وزال بهذه السهولة، وأن المستقبل أمامه كالح مظلم، وشعور مثل هذا طبيعي مألوف، فالملك المخلوع لا يزال قريب عهد بملكه، ومحتفظا بكبريائه وإبائه اللذين لم تحطمهما بعد الأيام"[8].

لما تماسكت الدموع ... وتنبه القلب الصديع

قالوا: الخضوع سياسة ... فليبد منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضو ... ع على فمي السم النقيع

إن يسلب القوم العدا ... ملكي وتسلمني الجموع

فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع

لم أستلب شرف الطبا ... ع، أيسلب الشرف الرفيع[9]

ويطول به هذا القلق والاضطراب ولا سيما لما يتذكر أيام شجاعته في الحروب، وقد ظهرت فيها بطولته وفروسيته؛ لأنه كان مقداماً يحب القتال ويكره الفرار، ولا يتمنى التهرب والتراجع، كما يتبين ذلك في هذه الأبيات:

قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع

وبرزت ليس سوى القميص ... على الحشا شيء دفوع

ما سرت قط إلى القنا ... ل وكان من أملي الرجوع

شيم الألى، أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع[10]

وسرعان ما يتحول هذا القلق والاضطراب عنده إلى الحزن والتحسر لتقلب هذا الدهر وخشونة حياة الحبس، وقد يزداد هذا الحزن والتحسر لما يذكر أيامه الزاهرة وقصوره العالية التي بناها ليعمرها، فبدأ يتجرع غصص المرارة، ويمثل لنا أروع المعاني وأعظم المشاعر تجاه هذه القصور التي أسماها "الزاهي" و"الزاهر" و"الثريا"[11]، فقد كانت كلها تبكي لفراقه وتشاركه في هذا الحزن والألم[12]:

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسرير

وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهل دمع بينهن غزير

سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى ... وطلابه، والعرف ثم نكير

إذا قيل في أغمات قد مات جوده ... فما يرتجى للجود بعد نشور

مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح عنه اليوم وهو نفور

برأي من الدهر المضلل فاسد ... متى صلحت للصالحين دهور[13]

فتولد في نفسه الضعف والعجز حينما لا يجد ما يجود به، ولا يملك حتى ما يستعين به، ويزداد به هذا الضعف والعجز لما يأتيه يوم العيد، وهو يوم البهجة والسرور، وإظهار المحبة والحبور، فإذا تدخل عليه بناته، وهن جائعات وحافيات، لم يكن على أجسامهن إلا الملابس الخلقة، فقد كنّ يغزلن للأجرة، فهو هنا لم يستطع أن يتمالك نفسه، فأرسل من نفسه آهات تعبر عن أقصى حزنه وأشد ألمه تجاه بناته، وأصداء تقارن حالتهن في الماضي الذهبي والحاضر السيئ، كما يتحدث عن ذلك الدكتور صلاح خالص في قوله: "وإنما حال زوجه وأبنائه، وهم يقاسون عنت الفقر ويعانون مرارة الحرمان أيضا.

فوصفهم في شعره، وأعرب عن تلك المشاعر التي تتزاحم في قلبه وتجتاح نفسه، وهو يراهم جياعا حفاة، يقبض البؤس على خناقهم ويمتص الشقاء دماءهم، فتخطر في ذاكرته حياته المترفة وماضيه السعيد فيعصر الهم قلبه وتتدفق دموعه بحرقة ويأس"[14].

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس، لا يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين، والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهيا ومأمورا

من بات بعدك في ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا[15]

وبما أن المصيبة لم تكن صغيرة فتزول سريعاً، ولكنها كانت تنمو في نفسه كل يوم، حتى انتهت به إلى جفاء العاطفة، حيث يتأجج فيها الألم باليأس والعجز بالتحسر والضعف بالحزن، فتنفث فيها الخواطر الحزينة والعواطف الجريحة مصحوبة بالألم والدهشة التي تتحول عنده إلى الحقد والنقمة على مر الأيام، كما يقول نديم مرعشلي: "انقلبت صيغة الدهشة إلى لحن من الحقد والنقمة على الأيام التي أذلته بعد عز، وأهانته بعد إكرام"[16]. حيث يقول:

قبح الدهر ماذا صنعا ... كلما أعطى نفيسا نزعا

قد هوى ظلما بمن عاداته ... أن ينادى كل من يهوى لعا[17]

من إذا الغيث همى منهمرا ... أخجلته كفه فانقطعا

قل لمن يطمع في نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا

راح لا يملك إلا دعوة ... جبر الله العفاة الضيعا[18]

وكان الملك يرسل عبراته الحارة في شعره لتطفئ بها كوامن حسرته، ويشتد إحساسا وشعورا بأن القدر الذي كان حليفا له طوال حياته قد تغير، وبدأ ينتقم منه ويذله، ثم يفكر في الحياة حيث يعرف أن هذا هو القدر الذي يتصرف في مصائر الناس، وتتعاقب فيه الأفراح والأتراح، والمسرات والأحزان حيث يقول:

نحوس كن في عقبى سعود كذاك تدور أقدار القدير[16]

ولما ضاقت به الحياة في هذا السجن، واستولى عليه اليأس والقلق، وطال به الاضطراب النفسي، وافتقد الأمل، وعجز عن تحقيق أقل رغبة وأبسط شيء، بدأ يكره الحياة، ويستسلم أمام القدر، ويتمنى الموت كما نرى ذلك في هذه الأبيات:

دعا لي بالبقاء، وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء

أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقي بها الشقاء

أ راغب أن أعيش أرى بناتي عواري ، قد أضر بها الحفاء

سيسلي النفس عمن فات علمي بأن الكل يدركه الفناء[20]

وفي هذا السجن لم يكن يشجيه إلا أطياف حب وحنين إلى بلده، ذلك لأن إشبيلية كانت تقبله بشعره وغنائه ولهوه وخمره، فتهيج في نفسه هذه الذكريات الجميلة، فيحيا في خيالات ماضيه حين عجز عن الحياة في حقيقة حاضرة كما يقول ندتم مرعشلي: "وبلمحة الخيال هذه يلمح الشاعر قصره (المبارك) يبكيه كذلك يبكي آرامه وآساده الذين حملوا على مغاردته ومزايلة حجراته وردهاته، وقد زال رواؤه، وزايله بهاؤه، وهتكت فيه ستور المجد، وحمل عنه بنو عباد"[21]، كما يقول في هذه الأبيات:

بكى المبارك في اثر ابن عباد بكى على إثر غزلان وآساد

بكت ثرياه لا غمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغادي[22]

فتراه هنا يشتكي من تقلبات الدهر، وعدم ثباته، حيث يستذكر حكم الدهر والتمرد عليه، وينشأ في خاطره إحساس عميق قائم على العتاب تجاه الدهر، وذلك أنه انتزع منه كل نفيس، وجعله مستودع الأحزان والآلام، كما يقول في البيت التالي:

أبى الدهر أن يقى الحيا ويندما      وأن يمحو الذنب الذى كان قدما[25]

## أغراضه الشعرية في السجن

لما امتحنته الحياة، وضاقت به الأرض رغم سعتها ورحابتها، وتغيرت له الدنيا من النعيم إلى الضيق ومن الفرح إلى الحزن ومن السرور إلى الألم، لم يتمكن من ولوج الأبواب الشعرية المعهودة كالغزل ووصف الخمر، والفخر على سيادته وولايته والمدح ليوسف بن تاشفين الذى نصره ضد العدو، كما كان دأبه قبل نفيه حيث كان ديوانه حافلاً بهذه الأغراض الشعرية التقليدية.

ولو استعرضنا القصائد والقطع الشعرية التى نظمها في الحبس، لرأينا أنها كانت تحمل بجملتها آهات وآنات، وهي بمثابة صرخات أليمة، تحولت عنده من الافتخار بنفسه والحديث عن المعارك التى خاضها، والنصر الذي كان حليفا له فيها دائما إلى حال يحسد عليه، وسرعان ما دارت به الأرض وتقلبت معه الأيام، فاستسلم أمام القدر حيث لا طاقة له تجاهه، فبدأ يقارن هاتين الحالتين في شعره، فنراه يدخل في المراثي الحكم والأمثال والمواعظ.

كان الفخر من أهم الأغراض الشعرية التى تحتل مكانة كبيرة في ديوانه بصفة عامة وفي الحبسيات بصفة خاصة، وقد تعرض له في كثير من القصائد المستقلة، أما الفخر الذى نرى مياسمه في الحبسيات، فهو يختلف إلى حد ما عن الفخر الذي في غيره من الديوان، وإن كانت المعاني المطروحة فيه تقليدية كالشعراء الآخرين من الكرم والشجاعة والحماسة والفروسية والفتوة وما إلى ذلك، ولكنها محصورة في هالة من العاطفة اليائسة، حيث كان يتحسر على حاله مقارنا ما له وما عليه من الدهر، وذلك لأنه في الحقيقة قد عاش في الأرض يوما حلوا ويوما مرا، ويوما ملكا لإشبيلية ويوما أسيرا في أغمات، كما نرى ذلك في الأبيات التالية.

مجدنا الشمس سناء وسنا      من يرم ستر سناها لم يطق

وقديما كلف الملك بنا ورأى منا شموسا فعشق

حنق الدهر علينا فسطا وكذا الدهر على الحر حنق(*)

ثم يقول:

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد، وثقل القيود[25]

أما المدح في شعره فلم يكن لأجل التكسب كالشعراء المطبوعين على ذلك، ولم يتناوله حرفة للتكسب، كما لم يكن في حاجة إلى طلب المنصب، بل كان مدحه صادرا عن رغبة وشوق وعاطفة صادقة ويظهر جليا في مدحه يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة سنة 479هـ.

ولولاك يا يوسف المتقى رأينا الجزيرة للكفر دارا[26]

ولما عزله يوسف بن تاشفين عن عرشه وأسره في أغمات، انقطع هذا المدح انقطاعا نهائيا، وحل محله الرثاء، وكان الرثاء له ثلاثة أقسام في هذه الفترة الحبسية، حيث كان يرثي نفسه وتارة يرثي أولاده وطورا يرثي وطنه وعرشه.

أما الرثاء لنفسه فقد رأينا أنه تحول من الفخر بنفسه نتيجة العاطفة الصادرة عن الألم والحزن والقلق إلى وصف حاله في السجن ورثاء أمجاده البالية، أما الرثاء لأولاده فقد استمر معه طوال فترة وجوده في السجن، فنظم قصيدته الرائية، وكانت تتدفق بعواطف حزينة وخواطر أليمة، وفيما يلي بعض أبياتها:

يقولون صبرا، لا سبيل إلى الصبر سأبكي، وأبكي ما تطاول من عمري

هوى الكوكبان: الفتح ثم شقيقه يزيد، فهل عند الكواكب من خبر

نرى زهرها في مأتم كل ليلة تخمش لهفا وسطه صفحة البدر

أبا خالد أورثتني الحزن خالدا أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري[27]

بينما نجد أن شعر الرثاء الوطني هو تعبير عن رثاء الممالك البائدة، نتيجة الانقلابات السياسية وتطويح الدهر بالدول، فانبرى الشعراء واقفين على أطلالها يندبون عزها الحائل، ومجدها الزائل، ويتأملون في صروف الأيام التي لا تبقى على أحد، فظهر هذا الفن عند الأندلسين فناً متكاملاً قام بذاته، واستقر على دعائم وأصول ثابتة، وإن كان معروفا في المشرق على صورة من صوره، ولكنه استقل به الشعراء الأندلسيون وبرعوا فيه كل براعة مثل ابن اللبانة شاعر المعتمد في رثائه على العباديين، وابن عبدون على دولة بني أفطس، وأبو البقاء الرندي ندب حظ الأندلسين[28].أما المعتمد فقد كان له حظ وافر في هذا الفن فضلا عن الشعراء الآخرين، لأنه أولاً كان ملكا ثم شاعرا، فرثاؤه في هذا الصدد كان صادرا عن قلب مجروح ولوعة صادقة، فيغالي فيه إلى حد غير طبيعي كما نرى في أبياته التالية:

اقنع بحظك في دنياك ما كانا ... وعز نفسك إن فارقت أوطانا

في الله من كل مفقود مضى عوض ... فأشعر القلب سلوانا وإيمانا

أ كلما سنحت ذكرى طربت لها ... مجت دموعك في خديك طوفانا[29]

لم يكن في فطرته جانحاً إلى الحكمة والزهد، إلا أن الصدمات التي تعرض لها في أخريات أيامه حطمت في نفسه كل ملذات الدنيا ونعيمها، غير أنه في بداية أسره، عندما بعد به العهد عن ملكه، لم يستسلم للقدر، بل أهوى إليه بالعتاب، ويستذكر تمرده عليه، ودفاعا عن نفسه، لما أهمل في تكريم مثواه، وتقديره الذي يستحقه كما يقول:

قبح الدهر ماذا صنعا ... كلما أعطى نفيساً نزعا[30]

كما يقول أيضا:

من يصحب الدهر لم يعدم تقلبه ... والشوك ينبت فيه الورد والآس

يمر حينا وتحلو لي حوادثه ... فقلما جرحت إلا انثنت تاسو[31]

وكما يذم الدنيا:

وإذا ما اجتمع الدين لنا ... فحقير ما من الدنيا افترق[32]

كما يقول أيضاً:

أرى الدنيا لا تواتى ... فأجمل في التصرف والطلاب[33]

عندما ننظر إلى الشكوى والاستعطاف وهما من أنواع الشعر التى جادت بها قرائح الوزراء وأرباب السلطة لما أصابهم من المحن وطوارئ الحدثين، فأمسوا في ذل بعد عز، وندبوا ماضيهم السعيد متأوهين على الحاضر المؤلم، نرى أن الشاعر يصف حالته في السجن، ويطلب من قيوده الرحمة والشفقة كما يقول:

قيدى أ ما تعلمني مسلما ... أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك، واللحم قد ... أكلته، لا تهشم الأعظما[34]

كما يقول في الأبيات الأخرى:

تعطف في ساقي تعطف أرقم ... يساورها عضا بأنياب ضيغم

وإني من كان الرجال بسيبه ... ومن سيفه في جنة وجهنم[35]

## أسلوب ابن عباد الفني

لا يكون الشعر بليغا ولا فصيحا إلا بالأسلوب الفني الذى هو الدعامة الأساسية لرصد المشاعر وتوظيف الأفكار وإظهار العواطف مراعاة للقوانين العروضية والأوزان الشعرية، وكان المعتمد قد تحلى بهذه الأوصاف كلها، وذلك لأن القريحة الشعرية كانت ملكة راسخة في الأسرة العبادية، "إذ أن والد المعتمد – المعتضد قد كان شاعرا، وجده أبو القاسم بن عباد مؤسس دولة إشبيلية شاعر كذلك، ولم يكن القريض وقفا على رجال الأسرة فقط، وإنما شاركت فيه النساء كذلك، إذ أن زوجة المعتضد الملقبة بالعبادية، شاعرة كذلك"[36].

وإن أكثر ما يمتاز به شعره، هو الصراحة والبساطة اللتان لا يخلو شعره منهما، فقد كان سهل الأسلوب، ميالا إلى السلاسة، يتعدى إلى السهولة والرقة أكثر من المتانة والرصانة، ويجمع إليهما الانسجام مع العواطف الرقيقة، والامتزاج مع مشاعره القنوطية، أما العاطفة فقد كانت تتدفق صادقة وعميقة تسيل بين ألفاظه وتتجلى في الأسلوب الفني الجميل، وذلك لأنه أعرب عن حزنه وألمه في الشعر[37] كما نرى هنا:

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا ... بل قد عـ ـن جهات الأرض إقلاقا[38]

فكان يستجيب للروافد البلاغية والأساليب الفنية التي يكسو بها شعره جمالا وحسنا، ويبوح بها أعمق العواطف وأدق الخواطر حيث يعتمد على سلامة الذوق وحسن السبك وجودة التراكيب وعذوبة الكلمات التي تؤثر في النفس إيقاعا جميلا وإحساسا لطيفا وشعورا عميقا، وليس المقصود هنا استجلاء جميع هذه الفنون البلاغية التي لجأ إليها في هذا الصدد، إنما أقصد من هذا البحث أن أتلمس مدى مهارته في هذا الفن، وإبراز مهارته الفنية وإمكانياته البارعة التي تتجلى من حين لآخر في هذه القصائد الحبسية.

ولا شك في ذلك أن التشبيه هو العنصر الأساسي في الأسلوب الفني حيث يلجأ إليه الشاعر لتقريب الحقائق إلى النفوس والقلوب، وتمثيل أعظم المشاعر وأكبر المشاهد بقدرته الفنية، على هذا النحو نرى تشبيهات القيود بالثعبان في الالتواء والأسد في البطش، يجعل الحقائق أقرب إلى النفوس، وأبلغ تأثيرا في الأفئدة كما في البيتين التاليين:

تعطف في ساقي تعطف أرقم ... يساورها عضا بأنياب ضيغم[39]

فقد جعل هذه القيود مثل عض الأفاعي وضراوة السباع، وهي من خلقتها مثل الأسد في البطش والعنف، وأنها لا تعرف معنى الرحمة، ومن ثم يترك هذا التشبيه أثرا خلابا في النفس، وينتقل بنا إلى صورة محسوسة كيف كانت القيود تؤلمه، وكيف كانت الحياة في السجن تمضي مع الإحساس العميق بهذه القيود المؤلمة، ويتجلى ذلك في الأبيات التالية:

تخلصتم من سجن أغمات والتوت ... على قيود لم يحن فكها بعد

من الدهم، أما خلقها فأساور ... تلوى، وأما الأيد والبطش فالأسد[40]

كما يشبهه بالثعبان مرة أخرى:

قد كان كالثعبان ومحك في الوغى فغدا عليك القيد كالثعبان

متمددا بحذاك كل تمدد متعطفا لا رحمة للعاني[41]

أما الاستعارة فقد كانت قصائده حافلة بها، وليس المقصود من هذا البحث حصرها وتعدادها، وإنما المقصود هنا استجلاء القدرة الفنية للشاعر وإظهار إبداع خياله الرائع ومهارته الشعرية كما نراه أحيانا يشبه نفسه بالغريب لعدم الاستقرار، على سبيل الاستعارة التصريحية في بيت، وفي البيت التالي يشبه نفسه أيضا بالحلم ثم بالنعمى ثم في عجز البيت بالري، وفي البيت الذي يليه يشبه نفسه بالطاعن والضرغام، كما يشبهه بالدهر وبالبدر، وبالصدر، ثم بالعطايا وبالوابل، كما في الأبيات التالية:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

بالحلم بالعلم وبالنعمى إذا اتصل بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضراغمة العادي

بالدهر في نقم بالبحر في نعم بالبدر في ظلم بالصدر في الناى

نعم هو الحق وافاني به قدر من السماء فوافاني لمعياد

ولم أكن ذاك النعش أعلمه أن الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد

يبكى أخاه الذى غيبت وابله تحت الصفيح بدمع رائح غادي

حتى يجودك دمع الطل منهمرا من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد

ولا تزل صلوات الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد[47]

ومن هنا ينبغي لنا الوقوف عند هذه القصيدة التي يرثي فيها نفسه في صورة جميلة، ويوصي بأن تكتب على قبره، وتحمل هذه القصيدة زهوه واعتزازه بنفسه من جهة وتحمل الحسرة اللاذعة والتفجع من جهة أخرى، حيث أشاع في القلوب والنفوس برا ورحمة، وكان يشبه قبره بالإنسان، ولم يذكره بل يضفي عليه صفة من صفاته وهي الرفق واللين، ويوجه إليه الخطاب ويطلب منه أن يرحمه ويعطف عليه، لأنه دفن فيه مؤقتا، ويدعو له بأن ترويه السحب الراعدة مراعاة لنضارته وطلاوته، ثم رأينا أنه يستخدم كلمة "استودعت" التي تدل على غاية تمسكه بالدين والعمل به حيث لم يعتقد أن القبر نهايته التي لا نهاية بعده، بل تشير هذه الكلمة إلى أنه لم يدفن فيه إلا أمانة، ثم يستمر في خياله في البيت التالي ويخاطبه مرة أخرى ويقول له مشبها نفسه أخا تلك السحب الراعدة في الطبيعة – على صورة التشبيه المقلوب- التي تضم فيها المطر الغزير الذي يصير سببا لنضارته تحت هذا القبر، ولأن القبر حينما يكون نضرا وخضرا، يكون هو أيضا، وذلك لأن هذا القبر أخفى وغيب عطاياه تحت هذا الحجر الصلد، ويبكى على أخيه بدموع الرائحين والغادين الذين ينوحون ويفيضون عليه العبرات الحارة التي تنبت منها الأزهار والورود لكثرة هباته وعظيم كرمه.

والجدير بالذكر هنا عندما يدعو إلى نضارة هذا القبر وطلاوته، فإنه في الحقيقة يدعو ضمنا لنفسه، لأن نضارة القبر وطلاوته تضمن لنضارته وطلاوته، ثم يخاطب مرة أخرى في البيت اللاحق، و يشبه الطل بالإنسان، ثم بالزهور أيضا، ويطلب أن تنهمر دموع الطل التي تخرج من عيون الزهور مترقرقة على هذا القبر الذي يحويه، ثم نرى أن كلمة "الطل" تزيد في هذه الصورة حسنا وجمالا إذ أن الطل يسقط قطرة قطرة ولا ينقطع مثل المطر الغزير ينهمر بكثرة وشدة ويسيل بسرعة، ثم نرى أن العبارة "لم تبخل بإسعاد"، إشارة إلى أن الزهور أسعدته:

كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد

يبكى أخاه الذى غيبت وابله تحت الصفيح بدمع رائح غادي

حتى يجودك دمع الطل منهمرا  من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد[43]

أما الاستعارة المكنية فقد كان حظها أكثر وأعظم في شعره، وذلك أنها أكثر ملاءمة وأنسب إطارا لتصوير أعظم المعاني وأعمق العواطف لتلك الخواطر الأليمة والاختلاجات الحزينة، عن طريق التجسيد والتجسيم حيث يشبه هذه القصور بصور الإنسان ولم يذكر الإنسان، بل يذكر لازما من لوازمه، وهو البكاء على سبيل الاستعارة المكنية:

بكى "المبارك" في اثر بن عباد  بكى على إثر غزلان وآساد

بكت ثرياه لا غمت كواكبها  بمثل نوء الثريا الرائح الغادي

بكى "الوحيد" بكى "الزاهي" وقبته  والنهر التاج كل ذلة بادي[44]

وكان الشاعر قد خلع عن شعره الجمود والركود بحيوية التشخيص والتجسيد في ثنايا قصائده، وكانت قصائده حافلة بهذه الصورة الفنية الجميلة التي تدل دلالة كاملة على قوته التكاملي في هذا الفن، ومهارته الفنية البارعة وقدرته الفائقة، وبفضل هذا الفن استطاع أن يتلافى التكرار الممل الرتيب والجمود في الموضوعات ووحدتها بتنوع الصور والتخيلات، ولكن هذه الاستعارات سطحية وسهلة، فالعلاقة فيها علاقة فطرية، لا تحمل عمقا ولا فلسفة، بل إنها تطفو أمام عيوننا متحركة.

وتوجد في قصائده صور حسية قد رسمها الشاعر بالكلمات الموحية والتعبيرات الناطقة حيث يصور لنا منظرا أليما ومشهدا حزينا في الأبيات التالية:

| | |
|---|---|
| ترى بناتك في الأطمار جائعة | يغزلن للناس، لا يملكن قطميرا |
| برزن نحوك للتسليم خاشعة | أبصارهن حسيرات مكاسيرا |
| يطأن في الطين، والأقدام حافية | كأنها لم تطأ مسكا وكافورا[45] |

نرى في هذه الأبيات صورة رائعة للبنات الجائعات اللاتي كن بالسجن في الأطمار الرثة في يوم العيد، وكان هذا أول عيد يقضينه في هذا السجن، حيث يدخلن على والدهن الأسير حافيات الأقدام على الطين خاشعات الأبصار، وكن في ذلك اليوم في حالة لا يملكن حتى قطميرا، ويعشن على أجرة الغزل الذي يغزلن للناس، وأنهن يمشين في الطين كأنهن لم يطأن مسكا وكافورا في حياتهن في القصر، وكانت هذه الصورة خالية عن أفانين البلاغة، ولكنها لا تقل خطورة في التأثير.

وقليلا ما أغرم الشاعر بأنماط المحسنات البديعية، وأكثر هذه المحسنات البديعية شيوعا لديه هو الجناس، وفقد استغله استغلالا فنيا لإظهار ما طرأ عليه من تغير الحالة، عندما يجيب زوجته:

قالت: لقد هنا هنا مولاي أين جاهنا[46]

صور هنا هذا الألم الدفين بروح الاستسلام للقضاء:

قلت لها: إلى هنا صيرنا إلهنا[47]

أما ما يتعلق بالموسيقى الشعرية، فقد نظم الشاعر أكثر شعره على الأوزان الطويلة والبحور الطويلة، وذلك أن العاطفة التي يدور حولها شعره عاطفة يائسة أليمة تخرج من قلب حزين فيطول الوزن مع أنفاسه بآه الحسرة، فيعبر عنها تمهلا بمديد من قرار الزفرة في الأداء الموسيقى، "وترى شعره في الأسر يلتزم البحور الطويلة التي تدل على التأمل والأناة لا على الثورة والجموح، وليس في شعره في هذا العهد موسيقى تشعر بسرعة إلا قطعته التي قالها إثر ثورة ابنه عبد الجبار، فهي من بحر المتقارب السريع الحركة لأنها تعبر عن انفعال سريع، وحركة تضطرم في صدره، كما اختار البحور الطويلة كذلك في رثائه"[48].

ومن ثم يلوح لنا أن أكثر الأوزان شيوعا عنده في التعبير عن هذه العاطفة هو بحر الطويل، ثم البسيط والكامل والرمل على التوالي، وقد جاءت هذه البحور في الغالب تامة، وخاصة في الرثاء والحنين إلى الوطن، ومما يلاحظ على القافية الإكثار من استخدام حروف المد والإطلاق ليكون الصوت مطابقا للأنين والعويل المصحوب بالحزن.

وكان للتراكيب والألفاظ التي اختارها للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره دور هام في بنائه الشعري، وذلك لأنها مصدر قيمته الأدبية وزينة المعاني، بحيث لا تأباها القلوب ولا تشمئز منها النفوس، وقد سلست له الألفاظ وسمحت له المعاني، فلم يستعص على لسانه لفظ ولم تضطرب في أسلوبه عبارة، حيث نجح في تضمين عواطفه الصادقة حتى في الرثاء في تعبير رقيق لين يزخر بالألفاظ الموحية والتراكيب السلسة من رجاء واستفهام وتعجب وتساؤل، وتمكن منها في رسم الوحدة بين الشكل والمضمون.

## خلاصة البحث

يتجلى لنا- مما تقدم- أن المعتمد بن عباد كان شاعرا بارعاً، يحب الشعر والشعراء، وكان يجمع في شعره العاطفة الصادقة الصادرة عن الحزن والألم لتقلبات الدهر وتغير الأحوال، فينزع إلى الرثاء للتعبير عن أقصى حزنه ومدى خسارته التي اعترته إثر عزله عن عرشه، كما تعرض لغير ذلك من الأغراض الشعرية الأخرى التي تأجج فيها اليأس بالاضطراب والقلق بالسآمة، ويتعدى فيها إلى العجز والضعف فيتحسر على حياته في السجن ويتوجع لتلك القيود، ويتألم لحال بناته، فحاولت في هذا البحث أن أتتبع هذه العواطف وأقف على هذه المشاعر وأحس بهذه الخواطر التي كان يمر بها في هذه الفترة الحبسية.

وسعيت في هذا البحث إلى أن أوضح كل الوضوح بأنه كان رقيقا في مشاعره عميقا في خواطره مقارنا بين الحياتين السعيدة والشقية، وكان ماهرا في الموسيقى الشعرية عن طريق حسن التآليف بين الحروف والألفاظ، فضلا عن حسن اختيار البحور والقوافي التي تناسب هذه العاطفة الأليمة والحزن العميق، والذي يزيد شعره شأنا ووقارا صناعته الفنية البارعة التي تتدفق فيها عواطفه الأليمة وأخيلته الحزينة في صور فنية جميلة.

## خاتمة البحث وتوصياته

ومن خلال كتابة هذا البحث توصلت إلى بعض النتائج الهامة والتوصيات التي يمكن أن تساعد الباحثين والمختصين في هذا المجال، وسأذكر فيما يلي أهمها:

- كان المعتمد بن عباد من كبار شعراء القرن الخامس الهجري، وكانت مدينة إشبيلية مركزا علميا ذات ثقافة عالية.

- قام المعتمد بدور هام في رفع الأدب العربي وتطوره في الأندلس، وكان بلاطه ملتقى الشعراء، ومركزا لهم.
- كانت القريحة الشعرية ملكة راسخة في الأسرة العبادية، كما أنهم يحبون الشعر والشعراء.
- وقد حظي ديوان المعتمد بمنزلة عالية في الأدب العربي، ولاسيما تلك القصائد والقطع الشعرية التي نظمها في الفترة الحبسية، وقد تلقت قبولا حسنا ونالت شهرة واسعة.
- إن العاطفة الصادقة والأسلوب الفني هما من العوامل الأساسية التي كستا شعره لباس الخلود والبقاء.
- كان لحبس المعتمد الأثر الفعال في استحداث المعاني الشعرية الجديدة في الأغراض الفنية، وإجادته في التعبير عن عواطفه وتصوير ألمه وحزنه ورثاء حاله بصورة رائعة، وإن كانت أغراضه الشعرية تقليدية في معانيها قبل ذلك.

وفي نهاية هذا البحث أود أن ألفت أنظار القراء والباحثين إلى أن هذا الموضوع يمكن أن يساعدهم في كشف الغطاء عن كوامن التأثيرات والمراحل العاطفية المخفية والمشاعر الباطنية في الفنون الشعرية المتنوعة، وكما يساعدهم على فهم وإدراك الشخصية الأدبية من المنظور التاريخي حيث يمر بمراحل مختلفة تغير مجرى حياته، وينتقل من مرحلة إلى أخرى بتغير الأهداف والغايات، وهذا بالتالي يمكن أن يفيدنا في تناول مثل هذه الموضوعات التي تجعلنا نتفاعل مع البيئة الشعرية تحليلا وأسلوبا ومعرفة وتعمقا وعاطفة وشعورا.

# الهوامش

* كانت إشبيلية في عهد ملوك الضوائف تحت حكم بنى عباد، وكانوا من أعظم الملوك ملكاً وأفسحهم رقعة، وأبعدهم صيتاً وأكثرهم ذكرا في تاريخ الأندلس وأدبها في هذه الفترة التى تبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة، تقسمت معها الأندلس إلى طوائف، وعلى كل طائفة ملك، وقد انتهى هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة 1091م.( أنظر: د. أحمد حسين هيكل: **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، الطبعة العاشرة، (مصر: القاهرة، دارالمعارف، 1986)، ص 28).

ولما تولى القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي حكم إشبيلية سنة 414هـ، استمر حكمه حتى سنة 433هـ، ثم انتقل الحكم بعد وفاته إلى ابنه محمد إسماعيل بن عباد المعتضد بالله، ومشى على نهج أبيه حتى جاء ابنه المعتمد بعده، (أنظر: د. عبد الوهاب عزام، **المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ**، الطبعة الأولى، (مصر: دارالمعارف 1959)، ص 06).

1- شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلطان، وفيات الأعيان، الطبعة الثانية، تحقيق: د. إحسان عباس، (قم: منشورات الشريف الرضي، 1303هـ) ج 5 ص 22.

2- محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمي المراكشي، المعجب في تاريخ أخبار المغرب، الطبعة الأولى، (مصر: مطبعة السعادة)، ص 59-63.

3- على الجارم بك، شاعر ملك قصة المعتمد بن عباد الأندلسي، ( مصر: مطبعة المعارف)، ص 30-38.

4- ندم مرعشلي، المعتمد بن عباد، (مصر: دار الكتاب العربي)، ص 8-18.

5- حنا الفاخوري، الموجز في تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الجيل، 1411هـ/ 1991م) ص 123.

6- د. صلاح فضل، المعتمد بن عباد الإشبيلي، ( بغداد: شركة بغداد للطبع والنشر، 1958م) ص179 -180.

7- المرجع نفسه، ص 179-180.

8- د. صلاح خالص، المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص 180.

9- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، راجعه د. طه حسين، الطبعة الرابعة، (القاهرة: مكتبة دار الكتب والوثائق القومية، 2002)، ص 88

10- المرجع نفسه، ص 88

11- هذه هي أسماء القصور التي بناها وعمرها، وكانت تبكي عليه لفراقه وما أصابه من محنة وتقلبات الدهر.

( أنظر: نديم مرعشلي، المعتمد بن عباد، ص 80).

12- نديم مرعشلي، المعتمد بن عباد، ص 80.

13- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 97

14- د. صلاح خالص، المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص 197.

15- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 100

16- نديم مرعشلي، المعتمد بن عباد، ص 102

17- لعلّ: مصدر منصوب بمعنى: انتعش من مكروه أو نهض من عثرة، يتضمن الدعاء بالسلامة، ويعرب مفعولا مطلقا به منصوبا بالفتحة ، كما جاء في قول كعب بن زهير:

فإن أنت لم تفعل فلست بأسف ولا قائل إما عثرت: لعا لكما

(أنظر: د. راميل بديع يعقوب، موسوعة النحو والصرف والإعراب، (باكستان: كوئته، مكتبة عثمانية)، ص577.

18- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 107.

19- المرجع نفسه، ص 102.

20- المرجع نفسه، ص 90.

21- نديم مرعشلي، المعتمد بن عباد، ص 84.

22- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 95.

23- المرجع نفسه، ص 114.

24- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 109.

25- المرجع نفسه، ص 114.

26- المرجع نفسه، ص 97.

27- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 105.

28- د. عبد الحميد شيحة، الوطن في الشعر الأندلسي، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة الآداب، 1418هـ/1997)، ص 125.

29- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 114-115..

30- المرجع نفسه، ص 101.

31- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 107.

32- المرجع نفسه ، ص 109.

33- المرجع نفسه، ص 109.

34- المرجع نفسه، ص 112.

35- المرجع نفسه، ص 112.

36- نديم مرعشلي، المعتمد بن عباد، ص 09.

37- د. صلاح خالص، المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص 212.

38- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 110.

39- المرجع نفسه، ص 112.

40- المرجع نفسه، ص 95.

41- المرجع نفسه، ص 115.

42- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 95.

43- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 95.

44- المرجع نفسه ، ص 95.

45- المرجع نفسه ، ص 100

46- د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، "جمع وتحقيق"، ديوان المعتمد بن عباد، ص 114.

47- المرجع نفسه.

48- المرجع نفسه، ص 30-31.